من قصص القرآن

جمعه
علي بن عبدالله الشهري

الطبعة الأولى
١٤٤٤هـ / ٢٠٢٣م



مقدِّمة

الحمد لله وحده، والصلاة والسلام على من لا نبيَّ بعده،

فالقرآن الكريم قد اشتمل على مجموعة من القصص المتعددة البديعة في نظمها وسياقها ومن أعظمها قصص الأنبياء عليهم الصلاة والسلام لما فيها من العظات والدروس والعبر، وتحقيق التوحيد وإثبات الوحي والرسالة وغير ذلك، وتتميَّز القصص في القرآن الكريم

بأنها كُلُّها حَــقٌّ وصِدْقٌ، قال عَزَّوَجَلَّ: ﴿إِنَّ هَٰذَا لَهُوَ ٱلْقَصَصُ ٱلْحَقُّ﴾ [سـورة آل عمـران: آيـة ٦٢] ولقد كان النبي صَلَّى ٱللَّهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ يتمثـل منهجـًا ربانيـًا ﴿فَٱقْصُصِ ٱلْقَصَصَ لَعَلَّهُمْ يَتَفَكَّرُونَ ﴿١٧٦﴾﴾ [سـورة الأعـراف: آيـة ١٧٦]

ومن هذه القصص قصة نبي الله يوسف عَلَيْهِ ٱلسَّلَامُ(١).

❊❊❊

(١) منتقاة من [تيسير الكريم الرحمن] للعلامة السعدي رَحِمَهُ ٱللَّهُ.

الدروس والعبر
من قصة النبي يوسف عَلَيْهِ ٱلسَّلَامُ

أن هذه القصة من أحسن القصص وأوضحها وأبينها لما فيها من أنواع التنقلات من حال إلى حـال، ومن محنة إلى منحة ومِنَّة، ومن ذل إلى عز، ومن رقٍ إلى ملك، ومن فرقة وشتات إلى اجتماع وائتلاف، ومن حزن إلى سـرور، ومن جدب إلى رخـاء، ومن ضيق إلى سـعة، ومن إنكار إلى إقرار، فتبارك من قصها فأحسنها.

أن فيها أصلاً لتعبير الرؤيا فإنّ علم التعبير من العلوم المهمة التي يعطيها الله تعالى من يشـاء من عبـاده، وإن أغلـب ما تبنى عليه المناسـبة

والمشابهة في الاسم والصفة، فإن رؤيا يوسف عَلَيْهِ ٱلسَّلَامُ التي رأى فيها الشمس والقمر وأحد عشر كوكبًا له ساجدين هذه الأنوار هي زينة السماء وجمالها وبها منافعها فكذلك الأنبياء والعلماء زينة للأرض وجمال وبهم يهتدى في الظلمات كما يهتدى بهذه الأنوار.

ما فيها من الأدلة على صحة نبوة محمد صَلَّى ٱللَّهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ حيث قصّ على قومه هذه القصة الطويلة وهو لم يقرأ كتب الأولين ولا دارس أحدًا، يراه قومه بين أظهرهم صباحًا ومساءً وهو أمّي لا يخطّ ولا يقرأ، وهي موافقه لما في الكتب السابقة.

ومنهـا: أنـه ينبغي البعد عن أسـباب الشـر وكتمان ما تخشى مضرته، لقول يعقوب ﴿قَالَ يَٰبُنَيَّ لَا تَقۡصُصۡ رُءۡيَاكَ عَلَىٰٓ إِخۡوَتِكَ فَيَكِيدُواْ لَكَ كَيۡدًا﴾ [سورة يوسف: آية ٥].

ومنها: أنه يجوز ذكر الإنسـان بما يكره على وجه النصيحة لغيره لقوله ﴿فَيَكِيدُواْ لَكَ كَيۡدًا﴾.

ومنهـا: أن نعمـة الله تعالى علـى العبد نعمة على ما يتعلق به من أهل بيته وأقاربه وأصحابه وأنـه ربّمـا شـملهم وحصل لهم مـا حصل له سـببه كما قال يعقوب في تفسيره لرؤيا يوسف ﴿وَكَذَٰلِكَ يَجۡتَبِيكَ رَبُّكَ وَيُعَلِّمُكَ مِن تَأۡوِيلِ ٱلۡأَحَادِيثِ وَيُتِمُّ نِعۡمَتَهُۥ عَلَيۡكَ وَعَلَىٰٓ ءَالِ يَعۡقُوبَ﴾ [سـورة يوسـف: آيـة ٦].

ولما تمت النعمه على يوسف حصل لآل يعقوب من العز والتمكين في الأرض والسرور والغبطة ما حصل بسبب يوسف.

ومنها: أن العدل مطلوب في كل الأمور، وفي معاملة الوالد لأولاده في المحبة والإيثار وأن الإخلال بذلك يختل عليه الأمر وتفسد الأحوال ولهذا لما قدَّم يعقوب يوسف في المحبة وآثره على إخوته، جرى منهم ما جرى على أنفسهم، وعلى أبيهم وأخيهم.

ومنها: الحذر من شؤم الذنوب وأن الذنب الواحد يستتبع ذنوبًا متعددة، ولا يتم لفاعله إلا بعد جرائم، فإخوة يوسف لما أرادوا

التفريـق بينه وبين أبيه احتالوا لذلك بأنواع من الحيـل، وكذبوا عدة مرات وزوّروا على أبيهم في القميـص والدم وهذا شـؤم الذنـب وآثاره التابعة والسابقه واللاحقة.

ومنها: أن العبرة في حال العبد بكمال النهاية لا بنقص البداية فإن أولاد يعقوب جرى منهم ما جرى في أول الأمر مما هو أكبر أسباب النقص واللـوم ثـم انتهى أمرهـم إلى التوبـة النصوح والسـماح التام من يوسف ومن أبيهم والدعاء بالمغفرة والرحمة وإذا سـمح العبد عن حقه، فالله خير الراحمين.

ومنها: ما منَّ الله به على يوسف عَلَيْهِ ٱلسَّلَامُ من العِلم والحِلم ومكارم الأخلاق والدعوة إلى الله تعالى وإلى دينه وعفوه عن إخوته الخاطئين عفواً بادرهم به، وتم ذلك بأن لا يثرّب عليهم ولا يعيّرهم به، ثم برّه العظيم بأبويه وإحسانه لإخوته، بل لعموم الخلق.

ومنها: أن بعض الشر أهون من بعض، وارتكاب أخفّ الضررين أولى من ارتكاب أعظمهما، فإن إخوة يوسف لما اتفقوا على قتل يوسف أو إلقائه أرضًا، وقال قائل منهم ﴿لَا تَقْتُلُوا۟ يُوسُفَ وَأَلْقُوهُ فِى غَيَـٰبَتِ ٱلْجُبِّ﴾ [سورة يوسف: آية ١٠]. كان قوله أحسن منهم وأخف، وبسببه خف عن إخوته الإثم الكبير.

ومنهـا: الحـذر من الخلـوة بالنسـاء اللاتي يخشـى منهن الفتنة والحـذر أيضًا من المحبة التي يخشى ضررها فإن امرأة العزيز جرى منها ما جرى بسبب انفرادها بيوسف وحبها الشديد له الذي ما تركها حتى راودته تلك المراودة ثم كذبت عليه فسجن بسببها مدة طويلة.

ومنهـا: أن الهمّ الذي همّ به يوسـف بالمرأة ثـم تركه لله تعالى مما يرقّيـه إلى الله زلفى لأن الهـم داع مـن دواعـي النفس الأمارة بالسـوء وهو طبيعةٌ لأغلب الخلق، فلما قابل بينه وبين محبـة الله وخشـيته غلبـت محبة الله وخشـيته داعـي النفـس والهوى فـكان ممن ﴿خَافَ مَقَامَ رَبِّهِۦ وَنَهَى ٱلنَّفۡسَ عَنِ ٱلۡهَوَىٰ ٤٠﴾ [سورة النازعات: آية ٤٠].

وإنمـا الهم الذي يلام عليه العبد الهم الذي يساكنه ويصير عزمـا، ربما اقترن به الفعل.

ومنهـا: أن مـن دخـل الإيمـان قلبـه وكان مخلصـاً لله في جميع أموره فإن الله تعالى يدفع عنه ببرهـان إيمانه وصدق إخلاصـه من أنواع السوء والفحشاء وأسباب المعاصي ما هو جزاء لإيمانه و إخلاصه، فلما أخلص عمله لله تعالى أخلصه الله، وخلصه من السوء والفحشاء.

ومنهـا: أنـه ينبغـي للعبـد إذا رأى محلاً فيه فتنة وأسـباب معصية أن يفرّ منـه ويهرب غاية مايمكنـه ليتمكن من التخلص مـن المعصية، لأن يوسف عَلَيۡهِ ٱلسَّلَامُ لما راودته التي هو في بيتها

فـرّ هاربـاً، يطلب الباب، ليتخلّص من شـرها، فحماه الله وأنجاه.

ومنها: ما عليه يوسف من الجمال الظاهر و الباطن فإن جماله الظاهر أوجب للمرأة التي هو في بيتها ما أوجب، وللنساء اللاتي جمعتهن حيـن لُمْنَها على ذلك أن قطعن ايديهن وقلن ﴿مَا هَـٰذَا بَشَرًا إِنْ هَـٰذَآ إِلَّا مَلَكٌ كَرِيمٌ ﴿٣١﴾﴾ [سـورة يوسـف: آيـة ٣١]. وأما جمالـه الباطن فهو العفة العظيمة عـن المعصية مـع وجـود الدواعـي الكثيرة لوقوعهـا وشـهادة امرأة العزيز والنسـوة بعد ذلك ببراءته.

ومنها: أن يوسف عَلَيْهِ ٱلسَّلَامُ اختار السجن على المعصية وهكذا ينبغي للعبد إذا ابتلي بأمرين إما يفعل معصية وإما عقوبة دنيوية: أن يختار العقوبة الدنيوية على مواقعة الذنب الموجب للعقوبة الشديدة في الدنيا والآخرة، ولهذا من علامات الإيمان أن يكره العبد أن يعود في الكفر بعد أن أنقذه الله منه كما يكره أن يلقى في النار.

ومنها: أنه ينبغي للعبد أن يلتجىء إلى الله تعالى، ويحتمي بحماه، عند وجود أسباب المعصية، ويتبرأ من حوله وقوته، لقول يوسف عَلَيْهِ ٱلسَّلَامُ ﴿وَإِلَّا تَصۡرِفۡ عَنِّي كَيۡدَهُنَّ أَصۡبُ إِلَيۡهِنَّ وَأَكُن مِّنَ ٱلۡجَٰهِلِينَ ٣٣﴾ [سورة يوسف: آية ٣٣].

ومنها: أن العقـل والعلم يدعوان صاحبهما إلـى الخيـر، وينهيان عـن الشـر، وأن الجهل يدعـو صاحبـه إلى موافقـة هـوى النفس وإن كانت معصية ضّرت صاحبها.

ومنها: أنه كما على العبد عبودية لله في الرخاء فعليه عبودية له في الشـدَّة، فيوسف عَلَيۡهِ ٱلسَّلَامُ لم يـزل يدعو إلـى الله تعالى ولما دخل السـجن اسـتمر على ذلك ودعا الفتيين إلـى التوحيد، ونهاهما عن الشرك.

ومنها: أن يبدأ بالأهم فالأهم وأنه إذا سـئل المفتي وكان السائل في حاجة أشد لغير ما سأل عنـه أنه ينبغي له أن يعلمه ما يحتاج إليه قبل أن

يجيب سؤاله، فإن هذا علامة على نصح المعلّم وفطنته وحسن إرشاده وتعليمه فإن يوسف لما سأله الفتيان عن الرؤيا قدّم لهما قبل تعبيرها دعوتهما إلى الله وحده لا شريك له.

ومنها: أن من وقع في مكروه وشدَّة، لا بأس أن يستعين بمن له قدرة على تخليصه أو الإخبار بحاله وأن هذا لا يكون شكوى للمخلوق، فإن هذا من الأمور العادية التي جرى العرف باستعانة الناس بعضهم ببعض، ولهذا قال يوسف عَلَيْهِ ٱلسَّلَامُ للذي ظن أنه ناجٍ من الفتيين ﴿ٱذْكُرْنِي عِندَ رَبِّكَ﴾ [سورة يوسف: آية ٤٢].

ومنها: أنه لا يلام الإنسان على السعي في دفع التهمة عن نفسه وطلب البراءة لها، بل يُحمد على ذلك، كما امتنع يوسف عن الخروج من السجن حتى تتبيّن لهم براءته بحال النسوة اللاتي قطعن أيديهن.

ومنها: فضيلة العلم بالأحكام والشرع، وعلم تعبير الرؤيا، وعلم التدبير والتربية.

ومنها: أن علم التعبير من العلوم الشرعية وأنه يثاب الإنسان على تعلّمه وتعليمه، وأن تعبير الرؤيا داخل في الفتوى لقوله للفتيين ﴿قُضِيَ ٱلۡأَمۡرُ ٱلَّذِي فِيهِ تَسۡتَفۡتِيَانِ ٤١﴾ [سورة يوسف: آية ٤١]

وقال الملِك ﴿أَفۡتُونِي فِي رُءۡيَٰيَ﴾ [سورة يوسف: آية ٤٣]

وقال الفتى ليوسف ﴿أَفۡتِنَا فِي سَبۡعِ بَقَرَٰتٖ سِمَانٖ﴾ [سورة يوسف: آية ٤٦]، فلا يجوز الإقدام على تعبير الرؤيا من غير علم.

(ومنها) أنه لا بأس أن يخبر الإنسان عما في نفسه من صفات الكمال من علم أو عمل إذا كان في ذلك مصلحة ولم يقصد به العبد الرياء وسلم من الكذب لقول يوسف عَلَيۡهِ ٱلسَّلَامُ ﴿ٱجۡعَلۡنِي عَلَىٰ خَزَآئِنِ ٱلۡأَرۡضِۖ إِنِّي حَفِيظٌ عَلِيمٞ ٥٥﴾ [سورة يوسف: آية ٥٥]. وكذلك لا تذمّ الولاية إذا كان المتولي فيها يقوم بما يقدر عليه من حقوق الله وحقوق عباده وأنه لا بأس بطلبها إذا كان أعظم كفاءة من غيره.

ومنها: أن جباية الأرزاق إذا أريد بها التوسعة على الناس من غير ضرر يلحقهم، لا بأس بها، لأن يوسف أمرهم بجباية الأرزاق والأطعمة في السنين المخصبات للاستعداد للسنين المجدبة وأن هذا غير مناقض للتوكل على الله تعالى، بل يتوكل العبد على الله تعالى، ويعمل الأسباب التي تنفعه في دينه ودنياه.

ومنها: حسن تدبير يوسف لما تولى خزائن الأرض حتى كثرت عندهم الغلّات جداً، وحتى صار أهل الأقطار يقصدون مصر لطلب الميرة منها، لعلمهم بوفورها فيها، وحتى إنه كان لا يكيل لأحدٍ إلا مقدار الحاجة الخاصة أو أقل، ولا يزيد كل قادم على كيل بعير وحمله.

ومنهــا: مشــروعية الضيافة، وأنها من سـنن المرسـلين عَلَيْهِمُ السَّلَامُ وإكـرام الضيـف، لقـول يوسـف لإخوتـه ﴿أَلَا تَرَوْنَ أَنِّي أُوفِي الْكَيْلَ وَأَنَا خَيْرُ الْمُنْزِلِينَ ٥٩﴾ [سورة يوسف: آية ٥٩].

ومنهــا: أن سـوء الظـن مـع وجـود القرائن الدالة عليه غير ممنوع ولا محرم، فإن يعقوب عَلَيْهِ السَّلَامُ قـال لأولاده بعـد ما امتنع من إرسـال يوسـف معهم حتى عالجوه أشد المعالجة ثم قـال لهـم بعدما أتـوه وزعمـوا أن الذئب أكله ﴿قَالَ بَلْ سَوَّلَتْ لَكُمْ أَنفُسُكُمْ أَمْرًا﴾ [سورة يوسف: آية ٨٣].

ومنها: أن اسـتعمال الأسباب الدافعة للعين وغيرها من المـكاره أو الرافعة لها بعد نزولها

غيـر ممنـوع بـل جائـز، وإن كان لا يقع شـيء إلا بقضـاء الله وقدره، فإن الأسـباب أيضـًا من القضـاء والقدر لأمـر يعقوب حيث قـال لبنيه ﴿وَقَالَ يَٰبَنِيَّ لَا تَدۡخُلُواْ مِنۢ بَابٖ وَٰحِدٖ وَٱدۡخُلُواْ مِنۡ أَبۡوَٰبٖ مُّتَفَرِّقَةٖ﴾[سورة يوسف: آية ٦٧].

ومنها: جواز استعمال المكايد التي يتوصل بها إلـى الحقـوق وأن العلـم بالطـرق الخفية الموصلة إلى مقاصدهـا مما يحمد عليه العبد وإنما الممنوع التحيّل على إسـقاط واجب أو فعل محرم.

ومنها: أنه ينبغي لمن أراد أن يوهم غيره بأمر لا يحب أن يطلع عليه، أن يستعمل المعاريض

القوليـة والفعلية المانعة من الكذب، كما فعل يوسـف حيث ألقى الصواع في رحـل أخيه ثم استخرجها منه موهمـاً أنه سارق وليس فيه إلا القرينة الموهمة لإخوته.

ومنها: أن الفرج مع الكرب، وأن مع العسـر يسراً، فإنه لما طال الحزن على يعقوب واشتد به إلى أنهـى ما يكون ثم حصل الاضطرار لآل يعقوب ومسّـهم الضـرّ أذِن الله حينئذ بالفرج، فحصـل التلاقـي أشـد الأوقـات إليـه حاجة واضطراراً، فتم بذلك الأجر وحصل السـرور وعُلِـم مـن ذلـك أن الله تعالـى يبتلـي أولياءه بالشـدة والرخـاء، والعسـر واليسـر ليمتحـن

صبرهم وشكرهم، ويزداد بذلك إيمانهم ويقينهم وعرفانهم.

ومنها: جواز إخبار الإنسان بما يجد، وماهو فيه من مرض أو فقر ونحوهما، على غير وجه التسخّط، لأن إخوة يوسف قالوا ﴿يَٰٓأَيُّهَا ٱلۡعَزِيزُ مَسَّنَا وَأَهۡلَنَا ٱلضُّرُّ﴾ [سورة يوسف: آية ٨٨] ولم ينكر عليهم يوسف عَلَيۡهِ ٱلسَّلَامُ.

ومنها: فضيلة التقوى وأن كل خير في الدنيا والآخرة فمن آثار التقوى والصبر وأن عاقبة أهلهما أحسن العواقب. ﴿إِنَّهُۥ مَن يَتَّقِ وَيَصۡبِرۡ فَإِنَّ ٱللَّهَ لَا يُضِيعُ أَجۡرَ ٱلۡمُحۡسِنِينَ ٩٠﴾ [سورة يوسف: آية ٩٠].

ومنهـا: أنه ينبغـي لمن أنعـم الله عليه بنعمة بعد شـدة وفقر وسـوء حال أن يتعرّف إلى الله تعالـى وأن لا يزال ذاكراً حاله الأولى ليحدث لذلك شـكراً كلما ذكرها، لقول يوسف ﴿وَقَدْ أَحْسَنَ بِىٓ إِذْ أَخْرَجَنِى مِنَ ٱلسِّجْنِ وَجَآءَ بِكُم مِّنَ ٱلْبَدْوِ﴾ [سورة يوسف: آية ١٠٠].

ومنهـا: لطـف الله العظيـم بيوسـف حيـث نقلـه في تلك الأحـوال، وأوصل إليه الشـدائد والمحن، ليوصله بها إلى أعلى الغايات ورفيع الدرجات.

ومنها: أنه ينبغي للعبد أن يتملّق إلى الله دائمـًا في تثبيـت إيمانـه، ويعمـل الأسـباب الموجبة

لذلك، ويسأل الله حسن الخاتمة وتمام النعمة، لقول يوسف عَلَيْهِ ٱلسَّلَامُ ﴿ رَبِّ قَدْ ءَاتَيْتَنِى مِنَ ٱلْمُلْكِ وَعَلَّمْتَنِى مِن تَأْوِيلِ ٱلْأَحَادِيثِ ۚ فَاطِرَ ٱلسَّمَٰوَٰتِ وَٱلْأَرْضِ أَنتَ وَلِىِّۦ فِى ٱلدُّنْيَا وَٱلْءَاخِرَةِ ۖ تَوَفَّنِى مُسْلِمًا وَأَلْحِقْنِى بِٱلصَّٰلِحِينَ ١٠١ ﴾ [سورة يوسف: آية ١٠١].

وختاما: فإن التربية بالقصص القرآني له أعظم وأبلغ الأثر في تكوين جيل صالح في مراحل الطفولة والناشئة والكبار، والمربي الموفق هو الذي يملك القدرة في توظيف القصة القرآنية من خلال النفوذ إلى قلب طلابه وأبنائه ليخرج بعد ذلك بالدروس والعظات والعبر.

❋❋❋